برد اليقين

كتبه

فهد بن يحيى العماري

القاضي بمحكمة الاستئناف بمكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، والصلاة والسلام على المصطفى، والمبعوث بالهدى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي النهى.

أما بعد:

فإن من اليقين الذي لا يخالجه شك ولا ارتياب بل هو عقيدة يعتقدها المؤمن في قلبه، راسخة رسوخ الجبال، أن هذا الدين منصور وباق إلى يوم الدين، وقد تغلغل هذا اليقين إلى نفوس بعض أعداء الإسلام بعد أن قاموا عليه محاربين، ظانين أنهم منتصرون، وعليه غالبون ومجتثون وطامسون، فلما أيقنوا أنهم لا يستطيعون طمسه، سلكوا طريقاً آخر للغزو، والصد عن سبيل الله، وما هم بمنتصرين، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصَّف: ٨].

من ذا يصدُّ الصُّبح عن إشراقه؟! ومن يحجبُ النُّور عن نشره وانتشاره؟!

قاموا غزاة على هذا الدين، وللشريعة مناكفين، ولنصوصه

رادين ومشككين، وغير مقتنعين، وبعقولهم محكّمين، وبأهله ساخرين، وبالسعي إلى تأويل النصوص إن لم يستطيعوا ردها ورفضها جاحدين.

يستترون بالحرية والعقلانية والحضارة، واتخذوها إزاراً يواري سوأة ما إليه يدعون، واتخذوا هدم النصوص وإسقاطها وتحريفها طريقاً للحرب على الإسلام، وهي أقوى معركة اليوم، ووجدوا في المسلمين مناخاً مناسباً لتجنيدهم وبث سمومهم، ومكّنوا الأعداء من التسلل بالأفكار الضالة الماكرة، بهدف قتل الإيمان في القلوب، تمهيداً للانقضاض على الإسلام، وإحلال غير دين الله وشرعه في الأرض.

وقاموا بإعادة التراث الكلامي والفلسفي والعقلاني المنحرف والخلاف الشاذ والبدعي، ونشره بين الجاهلين والمتعالمين، ليجدوا لهم طريقاً من طرق الأصالة، ونسباً إلى السلف، يرفعون به خسيسة الانتساب إلى العدو وأفكاره، والارتماء في حضارته وأحضانه.

يجعلون أحكام شريعة ربّ العالمين وفق قناعة عقولهم القاصرة بها، وما هو أسهل وأيسر في إقناع الناس بها، وليس إلى مراد الله ومراد نبيّه ﷺ، وفَهْمِ من زكّاهم الله ورسوله ﷺ من الصحابة والتابعين.

«وهو وهمٌ مبني على أن قناعة الناس مساوية للعقل والمنطق، وهو باطل مردود، ولو قيل بذلك فإقناع الناس

يختلف باختلاف الملقي؛ والمتلقي: قوة وضعفاً من حيث العلم وأدوات الإقناع والقدرة عليه والعوامل النفسية والتجرد في قبول الحق من عدمه»(١).

ولك أن تتخيل حينها كيف يكون حال الناس مع دينهم وتعاملهم مع ربهم، عقيدة وعبادة، كلٌّ يعبد الله حسب قناعته، فما اقتنع به قَبِله وعمل به، وما لم يقتنع به رده وترك العمل به، بدون حجة وبرهان علمي؟!

كيف يقتنع البليد بأحكام الدين وهو لا يعرف أصول اللغة العربية؟! وكيف يقتنع الجاهل وهو لا يعرف علم الحديث وأصوله؟! وكيف يقتنع المتعالم والأجنبي عن العلم وهو لا يعرف علم الفقه وأصوله؟!

وهل رأيتهم يوماً ما يخضعون دواء أبدانهم لقناعاتهم وجدالهم؟! فما هو إلا الكبر والهوى، وطمس البصيرة والعمى، يسلمون أبدانهم لغيرهم، ولا يسلمون عقولهم لكلام ربّهم وحديث رسولهم ﷺ.

يتكلم الطبيب والجيولوجي والفلكي والإعلامي والمفكر الغربي فلا نقاش ولا اعتراض، وإنما التسليم والحذر والاستعداد والسمع والطاعة، ويتكلم أهل العلم في الشريعة

(١) معركة النص، للعجلان، بتصرف (٤٠).

وتبليغ دين الله فلا تسليم، ولا وصاية لأحد على الناس في دينهم، ونحن رجال وهم رجال.

وقد كشف الله عن حال القلوب: فهي إما مستجيبة للحق أو متبعة للهوى، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَصَص: ٥٠].

إن أولئك المنهزمين متى ما حوصروا بالحقائق الشرعية يهبون فزعين للحديث عن إعادة قراءة النص والتعددية الفكرية ونسبية الحقيقة، وصدق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم أن وصفهم فقال: «ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه... فسبحان الله، كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها؟

سَتبدو لهم تلكَ السرائرُ بالذي يسوءُ ويُخزي يومَ تُبلى السرائرُ[1]

وحال بعضهم اليوم في التدليس كحال بعض اليهود، لما وقع بعضهم بالزنا، فسألهم رسول الله ﷺ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟** فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال

(١) الرسالة التبوكية (٢٥).

عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك»[(١)].

أَحْيَا بِهِ اللَّهُ هَذَا الخَلْقَ كُلَّهُمُ ... فَكَانَ رُوحاً وَهَذَا الخَلْقُ جُثْمَانُ

* معركة النص:

ومعركة اليوم تتجه بسهامها إلى أصول هذا الدين وثوابته، ونصوصه المحكمة قرآناً وسُنَّةً، سنداً ومعنى، تضعيفاً وتأويلاً وتهويناً وتشكيكاً وتحريفاً وكذباً وتدليساً، وإظهاراً وقبولاً لأهل الخرافة والعمامة، وتقديماً للجاهلين والمتعالمين، فيجعلون الإسلام ونصوصه وقواعده توظيفاً وخدمة لمشاريعهم وأفكارهم وحماية لأبدانهم وأوطانهم وحضاراتهم، فمرة يرفعونه وينصرونه ويحكّمونه في واقعهم، وتارة يضعونه ويحاربونه ويردونه؛ لأنه لا يخدم واقعهم.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [النُّور: ٤٨ ـ ٥٠].

إن المعركة اليوم أتت على كل النصوص حتى النص المحكم الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً ـ قطعي الثبوت

(١) صحيح البخاري (٣٦٣٥).

والدلالة ـ، وتلاعبوا في النص الذي يحتمل بعض المعاني، حتى رفعوا شعار: (النص مقدس، والتأويل حرّ).

لذا، كان ضرورة التقيّد بشروط الاجتهاد في النص، وضوابط تفسيره، والقيود على تأويله، ولا مساغ للاجتهاد في مورد النص، وإلا سيكون عندنا دين جديد ناسخ للشريعة المحمدية، وكل زمن سيأتي رجال يبدلون الدين حسب أفهامهم وعقولهم، والدعوة لقراءة جديدة للكتاب والسُّنَّة[1].

* أسباب المعركة:

كل ذلك كان ضلالاً وهوى وجهلاً وغروراً، وطمساً لمعالم أهل السُّنَّة والجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطبيعاً للخرافة وأهلها، وادعاء للتصحيح والمراجعة والتجديد، وطمعاً في الشهرة والمال والمنصب والجاه، وطلباً لرضى غير المسلمين والمؤمنين، ومناصرة لهم على أهل العدل والحق، ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠].

يقول ابن القيم: «ما عارض أحد الوحي بعقله إلا أفسد الله عليه عقله، حتى يقول ما يضحك منه العقلاء»[2].

(١) انظر بتصرف: النص المؤسس تأويله والاجتهاد فيه، للعميريني (٦٧).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٠٢).

* ثقة زائفة وثقافة وهمية:

لقد خاض بعض الصغار والكبار على مر التاريخ في علم الكلام والفلسفة، وعارضوا بعقولهم نصوص الوحي، وقرأوا في كتب الفلاسفة والملاحدة، ونقّاد الوحي والشريعة، واستمعوا إليهم بحجة: المعرفة والاطلاع، وثقافة الحرية، وقبول الخلاف مطلقاً، والثقة في النفس، والثقافة اللسانية، في غطاء تحصيني، وهمي هش ضعيف، فما كان منهم إلا أن وقعوا في الفتنة وسقطوا وانتكسوا، وارتد منهم أناس عن دين الله، واستمر بعضهم في حيرة واضطراب: عقيدة وعبادة وفكراً واتباعاً لسُنَّته ﷺ!؟ إلا من أنجاه الله وثبته وأعانه وأعاده إلى الحق، والسلامة والتسليم لله ولرسوله ﷺ لا يعدلهما شيء.

أيها الجيل: لا تعط لقلبك وعقلك الحصانة من الشهوات والشبهات، فتقلّب ناظريك وسمعك في مواقع الشك والحيرة، وضعف التسليم والإيمان بالله، والنفس بطبعها تتوق إلى الاطلاع كلما شعرت بنماء ثقافة العقل والفهم والثقة بالنفس، فيخونها ذلك الشعور.

إن كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب، وكثرة المساس تذهب الإحساس، صمّوا آذانكم، وأغلقوا أبصاركم عن ما يفسدها، وليس في القلب وميزان العقل أعظم من الدين؛ فالخوف والحذر من كل ما يكدره.

أيها القلبُ قد قضيتَ مَراما فإلامَ الولوغُ في الشبهات

الحذر كل الحذر من تصدير هؤلاء وتوقيرهم، وإخراجهم لإضلال الأمة، ونشر ضلالهم وفسادهم عبر وسائل التواصل وغيرها، والمصيبة العظمى يوم أن تظن أنها تفعل ذلك طاعة لله كفعل الخوارج.

زمنٌ يخفضُ العليَّ إلى القاعِ ويُعلي الدنيَّ للجوزاءِ

إنهم يقومون بدور الجراثيم الفطرية في إعطاب الثمار اليانعة، وإمراض الأبدان السليمة؛ بل هم أخطر؛ لأن إعطابهم يكون للدين والقيم والأخلاق.

يُقضى على المرءِ في أيامِ فِتنته حتى يَرى حَسناً ما ليسَ بالحسنِ

عبد الله: هل تصورت يوماً من الأيام أن الله قادر على قلب إيمانك الراسخ بتصديق آياته، دون أدنى شك وارتياب، فيسلب من فؤادك ذلك التصديق كله، فتكون متحيراً، لا تهتدي إلى صواب ولا رشاد، فاقرأ واسمع قول الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

* تحذير:

قال الله محذِّراً ومبيِّناً: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إن من يبتاع بالدِّين خسيساتِ الحياةِ
لغبيٌّ الرأيِ محفوفٌ بطولِ الحسراتِ

ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ولا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب»(١).

وجاء عن إسحاق الهمداني رحمه الله قوله: «من وقّر صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام»(٢).

مَنْ حَادَ عَنْ هدي النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ الغُرِّ لَيْسَ بِسَالِمِ

قال الله لنبيّه ﷺ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزّخرُف: ٤٣].

واعلموا أن الشبه خطافة، واليقين ضعيف، وقد حذر أهل العلم واليقين من مجالسة أهل الأهواء وسماع الشبه.

لماذا يخافون؟!

أيها الجيل: اسمع لخبر هؤلاء الكبار من الصحابة والتابعين، أينقصهم العلم والعقل والذكاء في رد الشبهات والأهواء؟ أينقصهم الحوار؟ هل هم يتهربون وعاجزون عن ذلك؟

الأئمة المتبحرون في الشريعة يخافون الشبهات، والشباب محدودو العلم والمعرفة وربما إلى الجهل أقرب، يخوضون

(١) الشريعة، للأجري (١/ ٤٥٢).
(٢) القدر، للفريابي (٢١٧).

وينغمسون صباحاً ومساء في مواقع الشبهات، قراءة واستماعاً، وخوضاً في المساجلات والردود، فيا لها من مفارقة، محزنة، مبكية، مؤلمة.

إنهم كانوا معظمين لكلام الله ورسوله وفهم السلف، وموقنين بأنهم على الحق والصراط المستقيم، ومدركين حقيقة الشبهات، وأثرها على القلوب.

أولئك قوم سارَ فيهم رشادُهم مع الحقّ لا يبغونَ عنه تَحولاً

أيها الجيل: واسمع أخرى إلى جبل في العلم، إنه ابن القيم حيث يقول: «وقال لي شيخ الاسلام ﵁ وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها، ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقرّاً للشبهات» فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»(١).

وقال الإمام مالك: «كان يقال: لا تمكّن زائغ القلب من أذنك، فإنك لا تدري ما يعلقك من ذلك»(٢).

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩٥).
(٢) الاعتصام (١/ ٢٢٩)، عزاه إلى مالك الإمام ابن أبي زيد القيرواني في الجامع (ص١٢٠).

دخولكَ من بابِ الهوى إن أردتَه يسيرٌ ولكنّ الخروجَ عسيرُ

واحذر أخرى من مجالسة صديق تشبّع بتلك الشبهات والشهوات، وتحليل المحرمات، وترك الواجبات، مورداً الخلاف، ورأي المنحرفين والمتلونين، يبثّها بين جلّاسه كل حين، والسبب ما تقدم ذكره، وود الضال والمنحرف أن كل من حوله كذلك حتى لا يكون وحده منحرفاً فيُنبذ، مجادلاً، ومخاصماً بالباطل، وقد روي: «ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يَزَلْ في سخَطِ الله حتى ينْزِعَ»[(١)].

من جَاور الشرّ لا يَأْمنْ عواقبُه كيفَ الحياةُ مع الحيّات في سَفَطِ

* عقيدة العجائز وأهل الكلام:

ولنعلم أن عند العامة من الإيمان والتسليم ما ليس عند بعض مدعي العلم والثقافة ومن حاروا من العلماء، ورحم الله الجويني[(٢)] يوم أن قال: «فمن تكون الراعية أعلم بالله منه، لكونه لا يعرف وجهة معبوده، فإنه لا يزال مظلم القلب، لا يستنير بأنوار المعرفة والإيمان»[(٣)]، وقال ناصحاً ومحذراً:

(١) سنن أبي داود (٣٥٩٧).

(٢) الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين أبو المعالي، عبد الملك الجويني، صاحب التصانيف في الفقه وأصوله.
تاريخ بغداد (١٦/ ٤٦)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٨).

(٣) مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٨٥).

«يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به»، وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته؛ فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور»، وفي ترجمة الرازي ـ وهو من كبار المتكلمين ـ وكان مع تبحره في علم الأصول يقول: «من التزم دين العجائز فهو الفائز»[١]، وورد عن جعفر بن بُرقان قال: «جاء رجلٌ إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن شيء من الأهواء، فقال: الزم دين الصبي في الكتاب والأعرابي، والْهُ عما سوى ذلك»[٢].

مَنْ شَاءَ مِنْ تِلْكَ الحُلَى فَلْيَغْرِفِ   مَنْ شَاءَ مِنْ ذَاكَ الجَنَى فَلْيَقْطِفِ

إن النص الشرعي يأخذ بالأمة إلى الأمثل، وهدايتهم إلى الأصوب، برهان لا يناله الوهن، عري عن الشبيه والمثيل.

* ثمرات تعظيم النص ودلالته:

إن من تعظيم الله تعظيم ما ورد عن الله وعن رسول الله ﷺ، وفي ذلك: امتثال لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، قال الله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ

(١) لسان الميزان (٤/ ٤٢٧).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٤٧).

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النِّسَاء: ٥٩] وكفى بهذه الآية ردعاً وزجراً للعابثين، وفي التعظيم والعمل به دليل على: الإيمان والخيرية، والحفاظ على الدين، وعدم تبديله وتغييره، والبعد عن الإثم، والآراء الشاذة، ورد القياس المصادم له، ومنع أهل الأهواء من العبث بأحكام الشريعة، وبه يحد الخلاف تارة، ويرجح ويحسم، ويرد تارة، والأئمة كلهم متفقون على ذلك، **ومقالهم**: إذا صح الحديث فهو مذهبي، فإن خالفه فاضربوا بقولي عرض الحائط، قدموا النص على الرأي والعقل، ثم يأتي صعلوك خنفشاري يعارض نصوص الشرع بعقله ورأيه وعدم قناعته، ويجعله نصّاً ثقافيّاً، يفسّر وفق عادات الناس[(١)].

ما العلمُ نصبكَ للخلافِ سفاهةً   بينَ النصوصِ وبين رأيِ سفيهِ

إن العبرة باتباع الحق، وما عليه سلف الأمة والرعيل الأول، وليس اتباع الأهواء والأمزجة الفاسدة.

أَيُّها العاقل اللّبيب تصبَّر   كلُّ شيءٍ لهُ ابتداءٌ وغاية

* قواعد في التعامل مع النص:

إن من قواعد السلف في التعامل مع النص الشرعي: التسليم له، ووجوب العمل بظاهره، والعبرة بعموم اللفظ لا

(١) انظر: المصالح الشرعية المترتبة على التمسك بالنص الشرعي، للطبطبائي، بتصرف (٢٣).

بخصوص السبب، ورد المتشابه منه إلى المحكم، وجمع النصوص والتأليف بينها: بردِّ العام إلى الخاص، والمطلق إلى المقيد، والمجمل إلى المبين، وتقديم النص على القياس والأدلة الأخرى، ودلالة السياق، وإعمال مقاصد الشرع بدون تعطيل للنص، ومن لم يعمل بهذه القواعد في الجملة فقد أخطأ وضل وانحرف، فيؤمن ببعض النصوص ويترك بعضها[١]، كما هو واضح وجلي في الانحرافات العقدية والفقهية والفكرية والمناهج الضالة على مر التاريخ الإسلامي، وهذا هو الفرق بين الراسخين في العلم، ومتبعي المتشابهات، فشأن الراسخين: تصور الشريعة صورة واحدة يرتبط بعضها ببعض، ولا يخل ولا يهدم ولا ينقض بعضها بعضاً.

* أيها الجيل المعتز بدينه:

لنعلم علم يقين: أنه إن طال الوقت أو قصر سيستبين من كان سائراً مع الدليل، ووفق مراد الله، ومن وقع تحت ضغط اللحظة الراهنة، ومتطلبات النفس والآخر، ومناكفة لحظوظ النفس والتعصب والمذهبية والاستعلاء وشرف النسب والعرق والبلد، والعاقبة للمؤمنين والمتقين والصادقين، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: ٣]، ولكنها فتنة التمحيص.

(١) فهم السلف للنص الشرعي، نادر العتيبي (٨٧).

فلا تحسبنَّ الشرَّ يَبقى فإنّه شِهابٌ حَريقٌ واقدٌ ثم خامدُ
ولـلـشـرِّ إقـلاعٌ ولـلـهـمِّ فـرجـةٌ وللخيرِ بعدَ المؤيساتِ عوائدُ
وكم أعقبتْ بعدَ البلايا مواهبٌ وكم أعقبتْ بعد الرزايا فوائدُ(١)

أمة الإسلام أمة منصورة وباقية، لا تفنى أبداً، مهما ألمّ بها من المصائب والفتن، وما ذلك إلا تمحيصاً لها وتطهيراً من الأمراض والآفات التي أصابتها، وسيأتي الفرج فلا يكُن في صدوركم حرج.

إذا تَضايقَ أمرٌ فانتظرْ فرجاً فأضيقُ الأمرِ أَدناهُ إلى الفرج

* قاعدة في الدين:

واعلموا رحمكم الله: أن من قواعد الدين التسليم لله ربِّ العالمين في أحكامه وشرائعه وحِكَمه وعلله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

إن التسليم لأمر الله تعالى من ركائز الإسلام وثوابت الإيمان ودلائل الإحسان، ومن يرتض لأمر الله تعالى ويسلم له يَنَل خير الدنيا وثواب الآخرة، وينعم بالرضا والاطمئنان ويستشعر السكينة والأمان.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

(١) ديوان ابن الرومي (١٦٦٢).

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

إن التسليم لله ﷻ من أخص معاني أركان الدين، وبه يجوز العبد الصراط، وتثقل به الموازين، وهو من أوجب الواجبات، وأعلى القربات.

إن مفهوم التسليم لله ورسوله يظل واحداً من أظهر بدهيات التدين؛ لأن التدين في جوهره يقوم على فكرة الطاعة المطلقة والإيمان المطلق، في كل الشرائع والأديان والفرق والملل والنحل سواء ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه أم لا، وحتى في أنظمة الدنيا الالتزام بها والتسليم لها، وهي من وضع البشر.

* تقوية المناعة:

أيها الجيل: إن التركيز على تقوية مناعة الأمة بتقوية مناعة أفرادها واجب ضروري وملح، وخير ما يقوّي هذه المناعة من الانحراف العقدي والفكري، هو ترسيخ أصل الانقياد والخضوع والإذعان والتسليم للوحي في النفوس والرضا بالملك القدوس، وما لم يكن المرء محصناً بتعظيم النص الشرعي والتسليم له فسيكون ولا بد عرضة للأهواء والمؤثرات والتنقلات.

إن طلب العلم أمر مهم وضروري، للوقاية من هذه

الآفات، وللحد من الوقوع في الشبهات، فإن لم تر نفسك في طلب العلم وسماع العلماء والبحث عن كاشف للشبهات، فلا ترع سمعك لمن أضله الله واتبع الهوى والشهوات، فتَضل وتُضل.

إن كثيراً من الجدل حول عدد من الأحكام الشرعية لا يدور حقيقة وتدقيقاً عن النظر الشرعي، ولكن الحقيقة المؤلمة أنها تشكلت نتيجة ضغوط الواقع، أمام حالة من الضعف، فوردت على نفوس أهلها قبل ورود دلالات الشريعة، فتمكنت من القلوب، واستقرت في النفوس، وسيطرت على الأفهام، حتى ظنت أنها على اليقين، فهاجموا شريعة ربّ العالمين، بالرد والتأويل والإعراض.

إن الإخلال بأصل التسليم الذي يبلغ ببعضه الخروج من الإسلام، وآخر يُعد زيغاً وانحرافاً لا يبلغ الكفر، وما نشاهده من عراك يسعى لقلع وزحزحة مبدأ التسليم لنصوص الوحي، فيبذل أولئك وسعهم وجهدهم في نقضه ورده، بنزع قدسية النص، وتعظيم الوحي من قلوب المؤمنين[(١)].

نحن في أيامنا هذه بأمس الحاجة لعبارة نعلنها صريحة واضحة، نجعلها شعاراً لحياتنا، تصدّق بها قلوبنا، وتؤمن بها نفوسنا، وتنطق بها ألسنتنا حالاً ومقالاً: «سمعاً وطاعةً يا

(١) ينبوع الغواية، بتصرف (٦٦).

رب»، لا نقول إلا ما يرضى ربنا؛ لأن مفهوم التسليم هو من أقوى دلالات التدين، والانقياد والطاعة لله ربِّ العالمين.

* العباقرة وجارية الصحراء:

لن نخرج من وحل الشبهات إلا بالعلم الشرعي والتسليم لله ربّ العالمين، ولن نسلم من وحل الشهوات إلا بالطاعات، والوقاية خير من العلاج.

عباقرة ملحدون لا يرون وراء هذا الإتقان خالقاً، وأذكياء يعبدون الشجر والبقر، وآخرون يعترضون على حكم الله في الحدود والمواريث، وجارية في الصحراء ترعى الغنم تعبداً لله، وتسليماً لأمر الله، فلا تغتر بعقلك وعلمك، فالعبرة بالتوحيد والاستسلام والفطرة التي فطر الله الناس عليها، والعبرة بالقلوب لا العقول، قال الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحَجّ: ٤٦].

أيها الجيل: احذروا وحاذروا هزيمة النفوس فإنها الحصون العظيمة، وإن المصيبة أن ينتصر الحق وليس لنا في بنائه لبنة وحجر، فاحفظ على نفسك يقينها، وعلى قلبك ثباته، لا تجعلهم يقتحمونك من الداخل، ويأخذون أغلى متاعك.

فهذا الحقُّ ليسَ به خفاءٌ   فَدعني مِن بُنياتِ الطريقِ

وإذا وجد الهوى في النفوس انفرط الدين من القلوب كانفراط العقد مسألة وراء مسألة، ولنكن صرحاء، وهذا واقع

معلوم، ولا نكابر، فإن لنا موقفاً عظيماً بين يدي ربّ العالمين.

* أيكم أعلم وأحكم؟!

إن مما يجب استحضاره عند ورود الشبهات: تقديم علم الصحابة وفهمهم على علم المتأخرين؛ لأنهم شاهدوا التنزيل، وحضروا التأويل، وعلموا وعرفوا المقاصد من النبي ﷺ، وكانوا أعرف بأحوال الرسول ﷺ من غيرهم، فيجب أن يرجع إلى قولهم؛ لأنه أمارة ظاهرة[1]، وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نوراً وإيماناً، وحكمة وعلماً، ومعرفة، وفهماً عن الله.

* لحظة من فضلك:

أيها الجيل: لنعلم أن الإنسان قد يجهل شيئاً من أحكام الشريعة، أو يشكل عليه بعض أحكامها، أو تخفى عليه بعض حِكَمها وعِللها، أو لا يستطيع الجمع بين نصوصها، وهو أمر طبعي نتيجة: لما يعتري الإنسان من الجهل والضعف، وليس الخلل في وجود الأسئلة والإشكالات، ولا يعني عدم وجود الجواب أن ينحى الإنسان منحى العبث بالنصوص الشرعية، وهدم أصول الدين، والخروج من الملة والدعوة لذلك، وإظهار القوة العقلية في اعتراض النصوص الشرعية، والتباهي بذلك في الأندية ووسائل التواصل.

(١) التمهيد في أصول الفقه (٢/ ٢٨٣).

وإن من العقل ألا تهدم أصول الدين، والخروج منه لوجود إشكال عارض، وتقدم الشك وتطرح اليقين للحظة عابرة وفكرة وخاطرة، والمحزن أنك تجد بعض الشباب يكون قابلاً لتلقي الشبهات، والتحول السريع، ليس لقوتها، وإنما لانكسار النفس وضعفها، والاستعجال في تلقيها(١).

وللأسف أصبح التلبس بذلك ركضاً وراء لفت الأنظار، وعنوان العقل والانفتاح والثقافة والوسطية، ومجاراة المنحرفين واللادينين، والعقل إذا لم يكن متبعاً للشرع، لم يبق له إلا الهوى والشهوة.

وقد أجاب ﷺ عن بعض الإشكالات، ولم يعنّف السائل، وتوقف في الجواب عن بعض الأسئلة؛ لأن ذلك من علم الله، فلم يعمل ﷺ عقله في الأمور الغيبية وأمور القدر، ويحاول الاجتهاد أو المعارضة، ولم يسأل الله عنها أفلا يسعنا ذلك؟

فقل لمن يدّعي بالعلم فلسفةً حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياء

ولقد كان الكفار يسألون الرسول ﷺ عن أشياء عناداً وتحدياً، فيسكت الرسول ﷺ ينتظر الوحي، يتنزل عليه، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

(١) انظر بعض المراجع المفيدة في هذا الموضوع: ينبوع الغواية، للعجيري، أسئلة الأطفال الإيمانية، للركف، سابغات، للسيد.

ولنعلم: أن الله أخفى الجواب عن نبيِّه، وهذا فيه فوائد عظيمة، **ومنها**:

أ ـ إعجاز البشر عن معرفة حقيقة الروح، وأنه مهما أوتي الإنسان من العلم والمعرفة فعلمه قاصر، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، فإذا كانت هذه الروح التي تسري في جسده وأقرب شيء منه وإليه، لا يعرف عنها شيئاً، فكيف بما هو أعظم منها، من الخلق والفعل والأمر منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأنت عاجز يا ابن آدم عن معرفة ذلك، فما عليك إلا الامتثال والانقياد له سبحانه والاعتراف بعبوديته وربوبيته.

ب ـ فيه تربية للنفس، بأن عليها الإيمان بالغيب، والامتثال لأوامره، والعبودية لله، وعدم الاعتراض على أفعاله.

ج ـ أنه لا أحد يستطيع جحود ربوبيته وألوهيته، فأفعاله ظاهرة، لا يستطيع أحد إنكارها.

وفي كُلّ شَيءٍ لـه آيةٌ تَدلُّ على أنّه واحدُ

د ـ جواز ترك الجواب عن السؤال إذا كان في تركه مصلحة أو ليس في جوابه مصلحة، والله عَزَّ وَجَلَّ ترك الجواب معاقبة لهم بنقيض قصدهم؛ لأنهم قصدوا التحدي والتعجيز.

هـ ـ أننا لا نقدم العقل على النصوص والأوامر الشرعية؛ لأن عقول البشر مهما بلغت لا تدرك أسرار التشريع، وإذا قسنا الخالق على الخلق، والرب على المربوب، وعلم الله على علم

البشر، فقد فسدت الحياة والعقول والقلوب، وجعلنا مع الله مشاركاً في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فإن للعقل حدّاً ينتهي إليه، كما أن للبصر حدّاً ينتهي إليه.

و ـ إن إخفاء الله علينا بعض العلل وما لا يدركه العقل، هو أمر أراده الله تمحيصاً للإيمان، والتصديق به وبدينه، وامتثال أوامره ونواهيه دون اعتراض، وإلا فكيف يتمايز الناس في إيمانهم بالغيب، وقد ذكر الله في القرآن علم الغيب مراراً.

*** اختبار:**

قال الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [المُلك: ٢][١].

اختبار في الإيمان والتصديق والكفر والتكذيب والتمحيص، اختبار في الطاعة والمعصية، اختبار في التسليم والمعارضة والتشكيك، اختبار في الثبات والانتكاسة والتلون واتباع الهوى، ليبلوكم أيكم أحسن: عملاً وإيماناً وتصديقاً وطاعة وانقياداً وثباتاً واستقامة واتباعاً.

دعونا من الفلسفات الفكرية، وإقناع الأمة بكثير من الغثائية، ونظريات أهل الكلام والمنطق، الذين عاثوا في عقول الناس فساداً، وصدوهم عن كتاب الله.

إننا لو نجحنا في حث المسلم للإقبال على القرآن،

(١) انظر: كتاب الابتعاث آمال وآلام وأحكام، للمؤلف.

وتدبره، ومدارسة معانيه، لتهاوت أمام الشاب المسلم ـ الباحث عن الحق ـ كل الشهوات والفلسفات المعاصرة حينما يختم أول «ختمة تدبر».

إن قراءة واحدة صادقة لكتاب الله، تصنع في العقل المسلم وروحه ووجدانه وأخلاقه وسلوكه وقوة علاقته بربه ورفع إيمانه، ما لا تصنعه كل المطولات الفكرية، والدورات الفلسفية، بلغتها المعاصرة، وخيلائها الاصطلاحي[١].

أيها الجيل: دعوا الجدل العقيم وسلطة العقل على النص بل اجعلوا سلطة النص على العقل، والشرع على الرأي، فكل من قدم عقله على نصوص الكتاب والسُّنَّة، غرق في ظلمات الأهواء والحيرة والاضطراب، ومن تعود معارضة الشرع بالعقل لا يستقر في قلبه إيمان، ولا حكم، ولا حديث.

* العقل والعادة والاكتشاف:

إن الخلط بين مفهومي: العقل والعادة هو الذي دفع بالاتجاه العقلي المعاصر إلى استشكال الكثير من النصوص النبوية بذريعة مخالفتها للعقل ثم المسارعة إلى إنكار تلك النصوص وردها، دون الانتباه للحدود الفاصلة بين دليل العقل ودليل العادة المرتبط بالحواس غالباً، أو بين القواعد العقلية البدهية الحاسمة: (كقاعدة: الكل أكبر من الجزء)، والعقل

(١) رقائق القرآن.

المرتبط بما اعتاده الإنسان، وجرى عليه في حياته، فالعقل البدهي المتفق عليه بين العقلاء، وضابطه هو سلامة قضاياه من التبدل والتحول مهما تغير الزمان والمكان، وأما العادة فلتكررها أحقاباً طويلة عدّها الناس عقلاً، وهي في الحقيقة لا ترجع إلى أساس عقلي منضبط، ولا تخضع لقاعدة عقلية حاسمة، والدليل: ما عدّه الناس مخالفاً للعقل قبل قرون أضحى اليوم موافقاً للعقل تامّاً؛ كمسألة الإسراء في الشرع اعتبرتها قريش محض خرافة؛ لأن علم البشر وقتها يمنع السفر من مكة إلى بيت المقدس ثم يعود في ليلة واحدة، ومعرفة نوع الجنين[١] وغيرها مما يسمى اكتشافات.

واعلم: أنه يستحيل التصادم بين الحقائق الشرعية في نصوص الوحي والحقائق العلمية، لأنهما من مشكاة واحدة، وقد ظن بعض الناس أن النظريات العلمية والاكتشافات الحديثة ظاهرها التعارض مع النصوص الشرعية، فدخلهم الشك والاضطراب، وهو سوء فهم للحقيقة الشرعية والحقيقة العلمية معاً، وينبغي أن نفهم في هذا المقام **القواعد التالية**[٢]:

أ ـ أن هناك نصوصاً من الوحي قطعية في دلالتها، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية في ثبوتها.

(١) والعرب تعرف نوع الجنين في بطن أمه من خلال شكل بطن المرأة ولون جلدها وطريقة المشي وغير ذلك.

(٢) الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمية، لراشد شهوان (٦٧).

ب ـ أن هناك نصوصاً من الوحي ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها، وتتغير حسب اجتهادات الأشخاص وتطور العلم وأدواته، وهذا مشاهد ومقروء ومسموع، فهل يترك اليقين والنص الشرعي لمثل ذلك؟!

ج ـ لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي في دلالته، وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع التعارض في الظاهر، فلا بد من البحث عن صحة الدليل النقلي إن كان حديثاً، وأما إن كان آية قرآنية، رجع إلى دلالاتها، وما استقر عليه العلماء في تفسيرها، أما إذا كان التعارض ناتجاً عن خطأ في فهم البشر وعقولهم فإن الأمر يرجع إلى عدم إدراك السر والحكمة في نصوص الوحي، أو عدم تكشف حقائق الغيب، أو عدم استقرار النظريات العلمية، ولا بد على كل حال من التزام قواعد الجمع والترجيح المعروفة.

إن المعارضة الصريحة بين العقل والنص النبوي دالة على فساد أحدهما، فاستحالة وقوع التعارض بين دلالة العقل ودلالة النص النبوي لا تتحقق إلا إذا كان النقل صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ، والعقل صريحاً سالماً من الشبهات؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يخبرون بمحالات العقول[(١)].

(١) الاتجاهات العقلية المعاصرة في دراسة مشكل الحديث النبوي (٣٣١).

لا تجعل من جهلك مبرراً لرد النصوص الشرعية وانحلالك، ولا تجعل ظنك غالباً على يقينك، وما لم تحط به علماً، دليلاً على العلم، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يُونس: ٣٩].

ودعوة لعلماء الشريعة وعلماء الطبيعة ونحوها إلى بذل التعاون وتقريب المسافة بين الفريقين كما يقول المعلمي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

* بعض الحقيقة:

أيها الجيل: يقول أحد المفكرين: إن معركة الجدل التي يخوضها الشباب المسلم المتحمس مع أعداء الإسلام، لا تستحق في الحقيقة ما يبذل فيها من الجهد، إن الكثرة الغالبة من هؤلاء المجادلين لا تجادل بحثاً عن الحقيقة، ولا رغبة في المعرفة، وإنما فقط لإثارة الشبهات ومحاولة الفتنة، والرد الحقيقي عليهم ليس هو الدخول في معركة جدلية معهم، ولو أفحمهم الرد في لحظتهم، إنما الرد الحقيقي على خصوم الإسلام هو إخراج نماذج من المسلمين تربّت على حقيقة الإسلام، فأصبحت نموذجاً تطبيقيّاً واقعيّاً لهذه الحقيقة، يراه الناس فيحبونه، ويسعون إلى الإكثار منه، وتوسيع رقعته في واقع الحياة، هذا هو الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض، وهذا هو مجال الدعوة الحقيقية للإسلام.

(١) صفة الارتباط بين العلماء في القديم (٢٦)، وانظر: كتاب ميلشيات الإلحاد، للعجيري.

* مهمة العلماء:

أيها العلماء وطلبة العلم: إن الواجب عليكم عظيم، فلا تدعوا فرجات للشيطان، واتحدوا وائتلفوا، وإن الخطب جليل، والأمر عظيم، فاعتزوا بدينكم، وتسلّحوا بالعلم، واثبتوا بالعمل، وثبتوا الأمة، وتصدوا لكل شبهة وفرية، واحذروا من الانهزامية، فإنها ضعف وخيانة وبلية، فلا تبرحوا ولا تتولوا يوم الزحف، ولا تهنوا ولا تحزنوا، كل واحد منكم على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يؤتى الإسلام من قبل أهله، الخلاف خلاف في المنهج، والمعركة في المنهج، وليس خلاف في المسائل، فلا تَغتروا ولا تُخدعوا، ولا تكونوا منفذاً للخلل في المنهج من خلال الخلاف في المسائل، وأنتم القدوات فمتى سقطت القدوات كانت الهلكات.

كونوا للشباب والفتيات قلوباً مفتوحة، وآذاناً مسموعة، واحتواء للمواقف، ولينوا بأيديهم، مهما كان الخلاف معهم، فللشباب ثورة وفورة وحدّة وشّرة[١] وفترة[٢] تحتاج إلى حوار وحكمة، فكونوا لهم بلسماً وأُمّاً وأباً، وهم اللقمة السائغة والصيد النافع للعدو، وهم زمام الأمة في المستقبل وحصونها وعدتها وعتادها.

(١) **شِرَّةٍ**: بكسر الشين المعجمة وتشديد الراء، الحرص على الشيء والنشاط فيه والرغبة، والشِّرَّةٍ: الحدة والقوة.

(٢) **فَترةٌ**: بفتح الفاء وسكون التاء؛ أي: وهنًا وضعفًا. والفَترة: الضعف والانكسار، والفتور والسكون والانقطاع.

إنه متى انشغل أهل العلم بالجزئيات عن الكليات، وبالفروع عن الأصول، حل بالأمة ما لا يحمد عقباه، وقد مر مثل هذا في التاريخ، والتاريخ دروس وعبر، والمسألة لا إفراط ولا تفريط، لا إهمال للكليات، ولا إشغال للأمة بالجزئيات، وإنما يعلّم الناس دقيق العلم وجليله، بحكمة وهدوء ونظر مصلحي ومقاصدي، ويعطى كل ذي حق حقه، وأن يوضع كل شيء في مكانه.

إن في هذه الأزمنة من الوسائل والأبواب ما لا يسع عالماً وداعية في أن يقف عن تبليغ دين الله ونصرته، ومن أغلق دونه باب فأمامه ألف باب، إعذاراً إلى الله، وحياء من الله، واللحاق بركب شرف النصرة.

وإذا تعذرت الأقوال فلا تتعذر الأفعال، وقد أحيا الله بأفعال الرسول ﷺ القلوب قبل الأقوال ولكن دون الاعتزال.

العلماء هم ورثة الأنبياء، والعلماء عقدهم وميثاقهم مع الله، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٩].

ونرفعُ رايةً لهدىً وخيرٍ ونـنتشلُ الأنامَ من الخسوفِ
وها هي أمةُ الإسلامِ ترنو لذي الإيمانِ والرأيِ الحصيفِ

قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن تعلّم الناس العلم»[(١)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به»[(٢)].

أمانةُ الدينِ قد شُدتْ بعاتِقكُم   فمَا لغيركِم تُلقَى المقاليد

إن التأخر والعزلة فرصة للعابثين والمفسدين، ولكل فكر ضال ومنحرف وصاد عن سبيل الله ومنهج الوسطية والاعتدال، في نشر ضلاله وفساده وتغيير هوية الأمة، وتشويه الإسلام.

فالثبات الثبات أيها الرماة واحذوا الانسحاب، والله من وراءكم، والتسلية بقول الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطُّور: ٤٨].

أيها الجيل العلمي الدعوي: كن فقيهاً في فقه الأولويات، وفّر قوتك ووقتك وجهدك وقلمك للعلم والتعليم وللتصدي لأعداء الدين، واخفض جناحك للمؤمنين، واعدلوا هو أقرب للتقوى، واحذروا التحريش والمحرشين والنمامين باسم العلم والمصلحة، ولا تكونوا متناقضين في أقوالكم وأفعالكم، وإياكم والشاذ من القول، فمن حمل شاذ العلماء، فقد حمل شرّاً كبيراً، ولا يكون إماماً في العلم من يحدث

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢١١).
(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (٥).

بالشاذ من العلم(١).

قال العز: «ولا يجوز إيراد الإشكالات القوية بحضرة العامة من الناس؛ لأنه سبب إلى إضلالهم وتشكيكهم، ولا يتفوه بهذه العلوم الدقيقة عند من يقصر فهمه عنها فيؤدي ذلك إلى ضلاله»(٢).

* ينابيع الغواية:

أيها الجيل: إنه من خلال الحوارات والقراءات يتضح أن كثيراً من الإشكال القائم في ظاهرة الانفلات العقدي والتعبدي والأخلاقي غير مستند لمرجعية علمية مبنية على أسس علمية بقدر ما هو راجع إلى تمكن الهوى والانسلاخ والعبثية وضعف الوازع الإيماني، والتمرد الفج على النصوص الشرعية، واستثقال الواجبات والسنن التعبدية والتفلت منها، وهوس الفتنة بحضارة الغرب، وكلما ضعف الاعتزاز بالدين تعلق القلب بغيره(٣).

وكنتَ مع الصّبا أَهدى سبيلاً   فما لَك بعدَ شيبِك قد نَكِستا

قال ابن القيم رحمه الله: «وأغبى الناس من ضلّ في آخر سفره، وقد قارب المنزل»(٤).

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال (٢/ ٧٠).
(٢) القواعد الكبرى (٢/ ٤٠٢)، الأشباه والنظائر (٢/ ٣٢٦).
(٣) ينابيع الغواية، بتصرف.   (٤) الفوائد (١٠٧).

* من يفوز بالشرف:

أحيوا معالم الدين والسنن والهدي النبوي في محياكم ومماتكم، في ظاهركم وباطنكم، في عبادتكم وتعاملكم وأخلاقكم، مع القريب والبعيد والغريب، في زمن الغربة: في الأسرة والمجتمع والمحيط والمسجد والمدرسة والأمة، وبشرى لكم، فقد ورد في الحديث: «**من أحيا سُنَّة من سُنَّتي قد أُميتت فعمل بها، كان له أجر من عمل بها من الناس لا ينقص من أجورهم شيئاً**»(١)، وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفضل المسلمين رجل أحيا سُنَّة من سنن الرسول ﷺ قد أميتت، فاصبروا يا أصحاب السنن رحمكم الله فإنكم أقل الناس»(٢).

لا حَوْلَ لا قُوَّةَ إِلَّا بِالعَلِي ... بِيَدِهِ الأَمْرُ فَمَا شَا يَفْعَلِ
لا يُقِيمُ الأُمُورَ إِلَّا اعْتِصَامٌ ... بِجَنَابِ المُهَيْمِنِ المُتَعَالِي

* بلاد الحرمين:

وإننا في بلد ـ ولله الحمد ـ خال من الخرافة، حافظ لعقيدة الناس، ومحارب ومكافح، لكل ما يخل بعقائد الناس من الانحرافات العقدية والإلحادية والتطرف، وفق شريعة الله وإقامة حدود الله منذ العهد بين الإمامين رحمهما الله، ونشر

(١) سنن الترمذي (٢٦٧٧)، وحسنه.
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١١٢).

الوسطية والاعتدال. اللَّهُمَّ أدم عقيدتها وأمنها وولاتها على الخير ونصرة الدين، وكل بلاد المسلمين.

❊ أعظم انكساف:

إن أعظم انكساف في حياة الأمة والأفراد انكساف الدين من القلوب، وانكساف القيم والفضيلة من الحياة والانقلاب عليها.

لَئِن غَابَ نور الدّين وانهدّ طودُه فَهَذَا الخسوفُ الْحقّ عُمرِكَ والخسْفُ

حينما ينكسف الإيمان جزئيّاً أو كليّاً فيتيه العبد في سيره إلى الله والدار الآخرة.

حينما يظلم القلب فيصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسُّنَّة أعرافاً وعادات.

حينما يتراجع ويتنازل المسلمون عن دينهم وقيمهم ومبادئهم والاعتزاز بها.

حينما تُمكِّن زائغ القلب والفكر من أذنك وعقلك.

إن كسوف القلب من أعظم النذر والعقوبات، فليحذر المؤمن كل الحذر من تلك الكسوفات.

وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ الدينَ يَجبُرُهُ وما لِكَسرِ قَناةِ الدِّينِ جُبْرانُ

إن أعظم انكساف حينما تعلن التوبة من التوبة والعودة إلى الله والإنابة.

إن أعظم انكساف هو العبث واللعب بالدين لتحقيق حظوظ النفس والهوى.

إن أعظم مصيبة وجريمة حينما يكون المرء سبباً في غواية الأمة وكسوفها وإفساد دينها، قال ﷺ في خطبة الكسوف: «**ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي وهو الذي سيب السوائب**»(١) وورد كذلك: «**يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب**»(٢).

كيف حال المبدلين والمغيرين يوم القيامة؟! الذين يريدون أن يفسدوا على الأمة توحيدها وقيمها واتباعها لسُنَّة نبيّها ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النِّسَاء: ٢٧]، يريد الذين يتبعون الرخص والتفلت والحرية المزعومة من الدين وشعائره الظاهرة والباطنة أن يكون لهم أتباع وأعوان وأمثال، لا يريدون أن ينفردوا بذلك التتبع وحدهم، وهذا من أعجب وأغرب الفكر المخالف للعقل والمنطق، فليس في الحياة ولا الأديان نظام بدون قيود ولكن الهوى يعمي ويصم.

إن فتنة عالم وداعية السوء لهي أعظم عند رسول الله من فتنة الدجال، وأخوف ما يخاف على أمته ﷺ من الأئمة

(١) صحيح البخاري (١٢١٢)؛ أي: أول من ابتدع هذا وجعله ديناً. كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٣٢).
(٢) صحيح البخاري (٤٦٢٣).

المضلين[1]؛ لأن فتنتهم أشد وأكثر تأثيراً، ويلبسون الحق بالباطل، ويغيرون على معالم الدين باسم الدين: بحجج باطلة ضالة حتى جعلوا بعض أحكام الدين صناعة بشرية محضة، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥]، ولا غرو فالهوى والمناكفة والغرور وتحول الخلاف الفكري إلى خلاف شخصي والعكس وإلباسه لبسة الدين والرحمة مع تلبيس إبليس تفعل أعظم من ذلك.

وكم من فاسدٍ يَرى نفسَه صالحاً ... وكَم من صالحٍ من صلاحِهِ يَتشككُ

(١) مسند الإمام أحمد (٢١٢٩٧).